الجزء الرابع

المجتمع

التنافسية هي اللعبة الرئيسة في حياة الشركة.

58. هل التقشف فضيلة أم رذيلة؟
59. ما ميراث (الكوبوراتيزم)؟
60. هل أنت من الليبراليين الجدد؟
61. هل يتخذ السياسيون قراراتهم بسرعة كافية؟
62. لماذا يجب أن نكون منتجين؟
63. هل التضخم نوع من الإدمان؟
64. هل يستطيع المستهلكون أن يكونوا منتجين كذلك؟
65. بم يفكر اليابانيون؟
66. ما سر تفوق الإنجليزية؟
67. هل تنتمي إلى (الثقافة الثالثة)؟
68. ما آلية تطور منظومة القيم؟
69. هل أطفالنا أذكياء؟
70. هل الرياضيات خطيرة؟
71. هل يمكنكم فهم جيل الشباب؟
72. هل تكمن المشكلة في تهافت الجيل الجديد؟
73. هل يمكن إنزال الحاسوب المحمول بالمظلة؟
74. هل عدم المساواة خطير؟
75. هل نعمل أكثر من اللزوم؟
76. هل سيغدو الماء في المستقبل (ذهبًا أزرقَ)؟
77. هل يتعين علينا أكل كلبنا؟

◈◈◈◈

58

هل التقشف فضيلة أم رذيلة؟

في عالم الاقتصاد هناك القليل من السجالات (الأيديولوجية)، والتقشف واحد منها. القضية هنا لاتتعلق بالسياسة الاقتصادية فحسب؛ بل تمتد إلى التناقضات في المنظومة الأخلاقية للمجتمع. بالنسبة إلى المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل الأمر في غاية البساطة: «يجب ألا ننفق أكثر مما نجني»، ومن المثير للدهشة أن يقود منطق بمثل هذا الوضوح والبساطة إلى هذا الجدل كله، نعم هذا صحيح، لكن الأمر ليس بالبساطة التي يظهر بها، فجذور التقشف تمتد عميقًا في تاريخ الإنسان وفي موروثه الديني.

في مؤتمر فلورنسا تحدث ماريو مونتي، رئيس وزراء إيطاليا السابق، عن التحفظ الألماني تجاه نهج إحياء الاقتصاد عبر تشجيع الإنفاق، وبين أن «في ألمانيا ينظر إلى علم الاقتصاد بوصفه أحد فروع فلسفة الأخلاق، وإلى النمو الاقتصادي بحسبانه مكافأة سماوية عن السلوك الجيد»، وأن الألمان يضيفون إلى قضية الإنفاق والتوفير بعدًا أخلاقيًّا، في حين يعدها بعض قادة العالم مجرد أدوات لتحقيق السياسة الاقتصادية.

تاريخيًّا، تمتد جذور هذا الجدل إلى ظهور البروتستانتية، ولا سيما الكالفينية في القرن السادس عشر.

وصف ماكس فيبر هذا الاختلاف في المواقف في كتابه المميز **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية** الذي صدر أول مرة عام (1905م)، فهو يرى أن البروتستانتية تثمن عاليًا روح الالتزام بالعمل والإخلاص للواجب في الحياة المهنية للأفراد، أو ما يدعى بالألمانية بيروف (Beruf)، وهي كلمة تجمع بين معنى الالتزام والحرفية في الوقت نفسه.

في المقابل، تدفع الكاثوليكية الأفراد إلى اعتقاد أن عملهم الحالي ليس سوى مرحلة في الطريق التي تؤدي إلى الآخرة حيث الثواب والحياة الأفضل. في البروتستانتية، ينال الناس ثوابهم على أشياء عديدة مثل: التعلم الجيد، والادخار، والعمل الجاد. ويُنال الثواب - أو جزء منه على الأقل - هنا على الأرض، فيغدو النجاح دالة للعلاقة المتميزة بين الفرد وخالقه. وتتجلى النتيجة الاقتصادية لمثل هذا الالتزام في كونها تقود إلى المزيد من التوفير والإنتاجية. وليس صدفة أن والد أنجيلا ميركل كان وزيرًا لوثريًّا.

في آسيا، لا تختلف المبادئ الأساسية للكونفوشيوسية جوهريًّا عما سبق، فإلى جانب طاعة الوالدين، التي تقود إلى تسلسل هرمي قوي في المجتمع (يتربع الإمبراطور على قمته)

تدعو الكونفوشيوسية إلى قيم: الولاء، والانضباط، والعمل الشاق، والتعليم، والادخار. يرتكز كل من الثورة الصناعية في أوروبا في القرن الثامن عشر والانبعاث الاقتصادي في آسيا خلال السنوات القليلة الماضية على مبادئ أخلاقية مشابهة. ينحدر مصطلح تقشف (Austerity) من الجذر اللاتيني (Austerus)، ومعناه (قاسٍ ومتزمت)، وهو مستمد من الجذر الإغريقي أوستيروس (Austêros)، وترجمته (جاف ولاذع). بالإضافة إلى ذلك تنحدر كلمة (عمل) من المصدر اللاتيني (Tripaliare) الذي يعني (تعذيب)؛ لذلك لم يعد مستغربًا أن شعارات (المزيد من التقشف) و (المزيد من العمل)، التي أطلقها بعض رؤساء الحكومات لإحياء الاقتصاد، لم تلق تجاوبًا من سكان الأجزاء الجنوبية (الكاثوليكية) من القارة الأوروبية.

لا يمكن للسياسة الاقتصادية أن توضع بمعزل عن التاريخ والثقافة التي شكلت ملامح الأمة وقيمها على امتداد القرون، وتغفل بعض حكومات التكنوقراط هذه الحقيقة الأساسية، فتجد نفسها في مواجهة تحديات صعبة، وربما مظاهرات في الشوارع، مثلما يُغفل الاقتصاديون في كثير من الأحيان المعاني العميقة للشعارات التي يطلقونها.

◆◆◆◆

59

ما ميراث (الكوربوراتيزم)؟[*]

يمثل (الكوربوراتيزم) بالنسبة إلى دعاة اقتصاد السوق أنواع الشرور جميعها: الكارتلات، وتحديد الأسعار، وتزوير العطاءات، وانكماش عقود المناقصات، وتجارب تحكيم مثيرة للشك، وغيرها. مع ذلك تشكل الكوربوتاريزم جزءًا من تاريخنا الاقتصادي، وإرثها ليس سلبيًّا بالكامل.

الكوربوراتيزم نوع من النظام الاقتصادي والاجتماعي، يتلخص في هيكلة المجتمع على صورة اتحادات تضم الناس أو المؤسسات. ربما كانت نقابات العصور الوسطى النموذج الأكثر نجاحًا في هذا المجال، فقد أدارت المصالح المشتركة في مناطق التجارة والاستثمار، وحددت الأسعار وضبطت معايير العضوية. ويمكن عدّ العصبة الهانزية[**] أول رابطة متعددة الجنسيات في

(*) كوربوتاريزم: سلطة الاتحادات، تنظيم المجتمع في جماعات صناعية ومهنية قوية، كالنقابات والاتحادات الصناعية وغيرها، تؤدي دورًا رئيسًا في التمثيل السياسي. (المترجم).

(**) بالألمانية (die Hanse) : رابطة ضمت العديد من المدن التجارية في منطقة بحر الشمال (شمال ألمانيا) والبلطيق، استمرت من القرن الثاني عشر حتى القرن السابع عشر. ضمت في البداية ثلاث مدن ألمانية هي: لوبيك، وهامبورغ وكولن، ثم تزايد عدد المدن المنضوية تحت لوائها حتى بلغ (80) مدينة في القرن الرابع عشر. شكلت هذه المدن نواة الرابطة الهانزية، وقد أقامت عدة محطات تجارية في نوفغورود (روسيا)، وبرجن (النرويج)، ولندن وبروج (بلجيكا). وتعد العصبة الهانزية أول محاولة في أوروبا لتأسيس منطقة للتجارة الحرة، فقد =

العصر الحديث، امتلكت قوة مكنتها من السيطرة على التجارة في منطقة بحر البلطيق في مطلع القرن الثالث عشر.

أتاح الكوربوراتيزم في ما بعد تنظيم الصناعات الوليدة على أساس تجاري، لا أيديولوجي، وهذا الشكل من التقسيم لا يزال ملحوظًا في أوروبا. على سبيل المثال، في دول مثل سويسرا وألمانيا، حيث نصادف تاريخًا عريقًا للكوربوراتيزم، غالبًا ما تنتظم النقابات بحسب فروع القطاعات، وهذا مكن من إلغاء الدراماتيكية في علاقات العمل، وقاد إلى تماسك مجتمعي أكبر وسلام عمالي طويل الأمد. في أمم أخرى مثل فرنسا، وإسبانيا، وإيطاليا حيث التقاليد الكوربوراتيزمية أقل قوة، أثَّرت الأيديولوجيات المسيحية والاشتراكية والماركسية بعمق في بنية النقابات، ما أدى إلى علاقات عمل أكثر تضاربًا.

ازدهر الاقتصاد في كل من سويسرا وألمانيا وفقًا لمبدأ أساسي: تتنافس الشركات في ما بينها، لكنها تمتاز بإحساسها بالانتماء إلى قطاع صناعي يدافع عن مصالحه ويراقب عن قرب

= اجتمعت النقابات وعائلات تجارية قوية في شمال أوروبا في ما بينها لتشكيل الجمعيات التي تمكنت في النهاية من ربط مجموعة من المدن بقوانين مشتركة واتفاقيات دفاع مشترك. وبين القرنين الثالث عشر والخامس عشر بلغت هذه الرابطة ذروتها، ثم ما لبث أن انهار احتكارها للتجارة وبناء السفن في المنطقة وسط التحولات المضطربة التي شهدتها أوروبا أواخر القرون الوسطى. (المترجم).

سلوك أعضائه. يكمن الخطر هنا في الوصول إلى (الكارتلية)(*) التي تقود إلى تحديد الأسعار والتلاعب السياسي، أما الناحية الإيجابية فتكمن في تمحور بنية العلاقات المجتمعية حول مصالح مشتركة، مثل توحيد أنظمة الرواتب وتوفير فرص العمل.

لم يمكن لقوانين بسمارك، التي أدت إلى تطوير الدولة الاجتماعية في ألمانيا، أن تعمل إلا في سياق التناغم الصناعي - الاجتماعي الموروث من الكوربوراتيزم؛ تمامًا مثل القوانين التي أطلقها مؤخرًا جيرهارد شرويدر في نظام (ساعات العمل المرنة).

ويمكن حسبان الكوربوراتيزم عاملًا محددًا قويًّا في المجتمع؛ إذ اضطرت السلطات الدينية إلى إعلان موقف صريح بشأنه، تجلى ذلك في (ريروم نوفاي)؛ الرسالة البابوية التي أعلن فيها البابا ليو الثامن تأييده الاعتراف بالنقابات عام (1891م).

يؤدي الكوربوراتيزم دورًا مفتاحيًّا في تأسيس العمود الفقري الذي يحفظ التعاون المجتمعي، ويتيح للقادة إدارة الأزمات الاقتصادية بمرونة أكثر. تتجنب المعضلات المنهجية من وجهة نظر قطاعية - غالبًا - ذلك النوع من الجدل الأيديولوجي المطول الذي يمكنه أن يزعزع استقرار الدولة.

(*) النهج الاحتكاري الذي تتبعه الكارتلات. (المترجم).

يشجع الكوربوراتيزم التعليم المهني. كانت النقابة في العصور الوسطى تصادق على منصب معلم الحرفة الذي يستطيع بعد ذلك توظيف عمال شبان وتدريبهم على مهارات الحرفة، هذا المنهج هو منشأ نظام التدريب المهني، الذي يؤدي دورًا مركزيًّا في القدرة التنافسية في دول عديدة هذه الأيام، ويشجع الموظفين على مشاركة معارفهم، ومساعدة الجيل القادم على تعلم مهنة وتحمل المسؤوليات المجتمعية.

هل يجب علينا العودة إلى الكوربوراتيزم؟ لا، ولكن ينبغي أن نعترف بميراثه الفريد، فقد تمكن من تحقيق الاستقرار في علاقات العمل عدة قرون، فمن دون علاقات عمل متينة وراسخة لن يستطيع الاقتصاد أن يكون تنافسيًّا ومزدهرًا مدة طويلة.

◈◈◈◈

60

هل أنت من الليبراليين الجدد؟

«بروفيسور... هل أنت ليبرالي جديد؟»، لم أكن متأكدًا مما يعني هذا، الليبرالية الاقتصادية؟ مفهوم، لكن ليبرالي جديد؟

في الواقع، لا أحب كلمة (جديد) (Neo) التي تعطي دومًا انطباعًا بأنك أصبحت من الطراز القديم. مع ذلك، فالليبرالية الجديدة متوافرة بالفعل، وهي ليست مجرد عودة إلى الوراء لإحياء ليبرالية القرن التاسع عشر، بل محاولة جديدة للتكيف مع الظروف الراهنة.

باختصار، تخلت الليبرالية الجديدة عن شعار (دعه يعمل)[*] وتبنت قواعد صارمة لتنظيم اقتصاد السوق. من منظري الليبرالية الجديدة في فرنسا جاك روف، وموريس آلليه الفائز بجائزة نوبل في الاقتصاد. ولدى الألمان كذلك مدرستهم التي تحمل اسم (أوردوليبراليزم).

(*) بالفرنسية (laissez-faire) الدعوة إلى حرية اقتصاد السوق وتحجيم دور الدولة إلى أدنى حد ممكن. (المترجم).

«بروفيسور، هل أنت مع الدعوة إلى تفكيك الدولة؟»، من المدهش كم يمكن للمرء أن يتعلم خلال المقابلات التلفازية، إنه إحساس غريب، فمن المستحيل أن تكون ليبراليًّا جديدًا وتدعو في الوقت نفسه إلى تحجيم دور الدولة، ومع ذلك يخلط الجميع دائمًا بين الموضوعين، فلم يحدث ذلك؟

ببساطة لأن الناس من ذوي النية الحسنة حولوا مصطلح الليبرالية الجديدة إلى (الليبرالية المتطرفة)(*) وهكذا دمجوا أفكار شخصيات مثيرة للجدل مثل ميلتون فريدمان، وفريدريك حايك، ومارجريت تاتشر، ورونالد ريغان. وحتى تصبح الأمور أسوأ كان كينز(**) قد سبق وأعلن أنه ليبرالي جديد. تظل اللغة الإنجليزية أكثر اللغات غنى بالكلمات ذات المعاني المتعددة.

في اقتصادات البلدان المتقدمة، نعيش بحكم الواقع في مجتمع من الليبرالية الجديدة، ولدينا اقتصاد السوق بالطبع، لكن الحضور القوي للدولة موجود في كل مكان، فعلى سبيل المثال، تتراوح نسبة موظفي القطاع العام بين (30% - 35%) في الدول الإسكندنافية، و(29%) في فرنسا، و(21%) في المملكة المتحدة (بالرغم من إرث مارجريت تاتشر)، أما النسبة في سويسرا والولايات المتحدة الأمريكية فتبلغ (16%).

(*) بالإنجليزية: (Ultra-Liberalism).

(**) جون مينارد كينز (1883–1946): عالم اقتصاد بريطاني، دعا إلى تدخل الدولة لتنظيم الاقتصاد لا سيما في أوقات الأزمات المالية. (المترجم).

في ما يتعلق بالنفقات العامة فهي (56%) من الناتج المحلي الإجمالي في فرنسا، و(48%) في المملكة المتحدة، و(41%) في الولايات المتحدة، و(33%) في سويسرا! فما معنى هذا الهراء الدائر حول تفكيك الدولة؟

تطرح الليبرالية الجديدة بدلًا من ذلك تساؤلات حول مدى فاعلية الدولة ومشروعية نفقاتها. مثلًا، لاحظ الاقتصادي الفرنسي نيكولاس بافيريز، الخصم المناوئ للبيروقراطية، أن مكافآت العاملين في القطاع العام في فرنسا أعلى بنسبة (11%) من متوسط الراتب في القطاع الخاص.

يرتبط الجدل الدائر حول حجم دور الدولة بشكل وثيق بما يحصل عليه المواطنون من المنافع والخدمات في المقابل. في الدول الإسكندنافية، تتخطى الضرائب (40%) من دخل الفرد، ومع ذلك فهذه النسبة تلاقي القبول من الناس؛ لأن الدولة تؤدي واجبها بكفاءة وتعيد الضرائب المقتطعة ثانية إلى المواطن على صورة خدمات ذات قيمة مضافة.

في النهاية، تدعو الليبرالية الجديدة إلى مجتمع مزدوج الوجه: الاعتراف بأن النجاح الشخصي النزيه هو محرك تقدم المجتمع، وأن هناك - في الوقت نفسه - واجب التضامن مع الفقراء والمستضعفين. كلا الوجهين يتناسب مع الآخر، فكلما

حققت المزيد من النجاح توجب عليك العطاء أكثر.

على الدولة إذًا أن تتبنى هذا النوع من المجتمعات وتعززه، بالرغم من أنه من غير السهل تعميم مثل هذه الرسالة (الإنسانية)، بالإضافة إلى ذلك، سيستمر تثبيت الملصقات على الجهة غير الصحيحة.

◆◆◆◆

61

هل يتخذ السياسيون قراراتهم بسرعة كافية؟

هذا ممكن، لكن تحقيقه ليس من السهل دائمًا. تختلف القرارات في عالم السياسة عن نظيراتها في عالم الأعمال، ففي السياسة، تُتخذ القرارات بعد سلسلة من عمليات الإقناع والتفاوض للوصول إلى تسوية قبل بلوغ المرحلة النهائية، بعد ذلك تنفذها الإدارة بشكل سريع نسبيًّا. أما في عالم الأعمال فالقضية معكوسة؛ إذ يمكن للرئيس أن يتخذ قراره بسرعة، لكن يلزمه الكثير من الوقت لإقناع مؤسسته بتنفيذه.

لا يكون هذا التمايز جليًّا دومًا؛ فهناك إدارات سياسية تجرجر أقدامها بتثاقل، وشركات تنفذ قراراتها بسرعة، وهناك أيضًا أمثلة في السياسة عن قرارات اتخذت بسرعة قياسية.

على سبيل المثال، في (20 يونيو 1790م) كان موعد العشاء الأكثر شهرة في التاريخ الأمريكي. كان اسم المضيف آنذاك توماس جيفرسون، أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأمريكية، وواحد من رؤسائها في المستقبل. جلس إلى الطاولة كل من جيمس ماديسون (رئيس مستقبلي آخر)، وألكسندر

هاميلتون وزير الخزانة الأول. كان موضوع النقاش مشكلة الديون الهائلة على الولايات الشمالية في الأمة الوليدة، فمن أجل الدعم المالي لحرب الاستقلال التي قادها جورج واشنطن، كانت هذه الولايات قد اقترضت مبالغ لم تستطع سدادها، فأصبحت على حافة الإفلاس. الولايات الأخرى مثل فرجينيا وجيورجيا كانت أقل تبذيرًا، لكنها بقيت غير مبالية بمعاناة أخواتها.

بعد بضعة زجاجات من العصير الممتاز التي جلبها توماس جيفرسون إثر عودته من فرنسا توصل الحاضرون إلى توافق في الآراء حول حل مشكلة ديون الولايات المتحدة الفتية، ويتضمن ذلك أن تسد الدولة الاتحادية الجديدة الديون عن طريق إصدار سندات الخزانة الأمريكية. بكلمات أخرى، عزز المجتمعون مبدأ التضامن الفيدرالي للوفاء بالتزامات ولايات الاتحاد جميعها.

تضمن الاتفاق أيضًا الشروع في بناء عاصمة جديدة على ضفاف نهر بوتوماك، والتي ستصبح عام (1803م) عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية رسميًّا، وبذلك تعافى القطاع المالي، واشترت الولايات المتحدة مقاطعة لويزيانا من فرنسا، وضمنت قرضًا بفائدة (6%) من بنك بارينغ في لندن (انظر السؤال (15): ما الطريق إلى الازدهار؟) واستعادت الولايات المتحدة بذلك مصداقيتها المالية.

بعد ذلك بمئتي عام، وفي أعقاب أزمة (2008) المالية، عقد القادة الأوروبيون أكثر من خمسة وعشرين مؤتمر قمة، وعددًا أكبر من حفلات العشاء، ولكن من دون التوصل إلى أي قرارات مهمة. لماذا؟ ربما لأن الظروف الاستثنائية (مثل ولادة أمة جديدة أو ظروف الحرب كالتي سادت في 1803م) تقتضي وجود قادة عظماء في مركز القرار، فضغط الأحداث الكبرى وعدم توافر البدائل، كلاهما يجبران الناس على اتخاذ القرار الحاسم. لقد كان جيفرسون وزملاؤه قادة من نتاج عصرهم.

على العكس من ذلك، تحدث الأزمات في هذه الأيام بشكل غير متوقع حين يكون القادة السياسيون من نوع (قباطنة الطقس المعتدل). يضاف إلى ذلك مشكلة أخرى في الدول الديمقراطية؛ تتمثل في المدة الزمنية القصيرة التي يقضيها السياسيون في وظائفهم (متوسط ثلاث سنوات). تناوب على حكم اليابان تسعة رؤساء وزارة منذ عام (2000م)، أما بلجيكا فقد حققت الرقم القياسي في بقائها من دون حكومة مدة (541) يومًا! كيف يمكن للقادة من ذوي الولاية القصيرة الأجل حل المشكلات طويلة الأمد؟

يبطئ تعدد مراكز القرار، التي كثيرًا ما تكون أهداف أصحابها متضاربة، من سرعة اتخاذ القرارات السياسية. في حالة أوروبا، كيف يمكن اتخاذ قرار سريع عندما يتعين على

(28) رئيسًا التوصل إلى اتفاق بالإجماع؟ ومن لديه القدرة غير المحدودة والمسؤولية ليقرر؟ لخص هنري كيسنجر هذه المعضلة في قوله: «لا أعرف بأي رقم عليّ الاتصال عندما أريد أن أهاتف أوروبا».

◈◈◈◈

62

لماذا يجب أن نكون منتجين؟

عندما نزلت من الطائرة في مطار سوفارنابومي- بانكوك كان هناك أربعة أشخاص في انتظاري، وعند الوصول إلى قسم الجوازات كان هناك ثمانية، وحين جلست في السيارة كان هناك المزيد ممن يحاولون مساعدتي. شعرت بالخجل وقلت لنفسي: «هذه هي الخدمة!»، مع ذلك، استيقظ الاقتصاديّ في أعماقي ليحلل: «وفقًا لما يجري فإن مستوى الإنتاجية في تايلاند يجب ألا يكون مرتفعًا».

هذا صحيح، فالإنتاجية في تايلاند ليست على أفضل ما يرام. تقاس الإنتاجية عادة بالناتج المحلي الإجمالي (بحسب القدرة الشرائية) للفرد العامل في الساعة. في عام (2014م) كانت الإنتاجية (10.7) دولارات في تايلاند، وبمقارنة مع باقي دول العالم نجد أنها (38.7) في البرتغال، و(44.2) في اليونان، و(47.8) في إيطاليا، وفي إسبانيا (51.5). إذًا هناك شوط كبير على تايلاند أن تقطعه. لكن هل هذا تقويم عادل؟

هناك مؤشر آخر لا يعرفه إلا القليل، وهو أن معدل البطالة في تايلاند (0.8%) هو الأخفض في العالم بأسره! وبالرغم من

أن الإنتاجية مرتفعة في إسبانيا لكن معدل البطالة يبلغ (21%)، ويصل في أوساط الشباب من (16) إلى (24) سنة إلى أكثر من (50%)، في حين أنه لا يتعدى (2.3%) في تايلاند.

هناك طبعًا شيء من الغموض في ما يتعلق بتايلاند؛ فإذا كانت نسبة البطالة متدنية إلى هذا الحد ألا يعني ذلك ارتفاع معدل (العمالة غير الماهرة)؟ والسؤال الذي ينبغي طرحه هنا: ما الأفضل؟ أن يكون الاقتصاد مرتفع الإنتاجية (مثل الاقتصادات الأوروبية سابقة الذكر) - ولو ترافق ذلك مع نسبة بطالة عالية - أم يكون ذا إنتاجية أقل يمكن معه للجميع - تقريبًا - الحصول على وظيفة؟

يسهل فهم كلمة (إنتاجية) على مستوى الشركة، أما على المستوى الوطني فالأمر مختلف. عندما شرعنا في أبحاثنا حول التنافسية منذ أكثر من ثلاثين عامًا، جاء أحد الانتقادات على لسان بول كروغمان: «التنافسية مجرد اسم آخر للإنتاجية لا أكثر»، لم يكن هذا الانتقاد مشجعًا آنذاك، لا سيما أنه ورد على لسان أحد الفائزين بجائزة نوبل في الاقتصاد. على مستوى الأمة، يمكن أن تغدو الإنتاجية كلمة مضللة بل وخطيرة؛ إذا لم تُربط بباقي العوامل مثل فرص العمل، والتكافل الاجتماعي والاستقرار السياسي.

قد تصيبنا الدهشة لدى رؤيتنا أشخاصًا في آسيا يقتصر عملهم على فتح أبواب المتجر لاستقبال الزبائن، قد يبدو ذلك

مهينًا، لكن مثل هذا الشخص في أوروبا أو أمريكا سيكون إما عاطلًا عن العمل، أو يعيش على نفقة الرعاية الاجتماعية، أو متشردًا.

غالبًا ما تتبدد منافع الإنتاجية التي حققتها الشركات القوية بتأثير البطالة عبر ارتفاع نفقات المعونات الاجتماعية، وستواجه إسبانيا واليونان مخاطر سياسية كبيرة مع وجود (50%) من الشباب العاطلين عن العمل، وربما تؤدي هذه المخاطر إلى أنواع الاضطرابات المدنية جميعها.

في آسيا تتوافر وظيفة بواب المتجر الذي يرتدي ملابس لائقة ويشعر بالسعادة واحترام الذات كونه غير عاطل عن العمل، ويومًا ما سيجد لنفسه عملًا أكثر أهمية داخل المتجر، ولن يعيش حياة الشوارع مسببًا الفوضى. في العديد من الدول، تلغي التكلفة التي تدفعها الحكومات نتيجة للبطالة منافع الإنتاجية المرتفعة أو معظمها، هذا ما يحصل على الأقل في ما يدعى الاقتصادات المتقدمة.

ربما من الأفضل أن يكون الاقتصاد أقل إنتاجية وقادرًا على توظيف القادرين على العمل جميعهم؛ من أن تكون الإنتاجية مرتفعة جدًّا مع نسبة كبيرة في البطالة. أرى أنه من المهم جدًّا إعادة التفكير في هذه المسألة.

◈◈◈◈

63

هل التضخم نوع من الإدمان؟

حافظت معدلات التضخم في العديد من البلدان على مستوى منخفض على امتداد عقود، أما اليوم فيؤدي إلى نوع من الانكماش الاقتصادي، وتعد العولمة أحد الأسباب الرئيسة في ذلك. ازدادت المنافسة على المستوى العالمي، ما أدى إلى انخفاض الأسعار نظرًا لتوافر عوامل مكنت الشركات من تخفيض كلفة الإنتاج بشكل كبير، ومنها الأجور. على سبيل المثال، كانت نسبة الرواتب في الصين في بداية الثمانينيات مقارنة بأوروبا (1-30)! نتيجة لذلك، لجأت العديد من البنوك المركزية في اليابان وأوروبا إلى إصدار المزيد من الأوراق النقدية بهدف الوصول إلى نسبة تضخم تعادل (2%)، وهذا تقليد معروف ومتوارث منذ أجيال.

الحال مختلفة في دول الاقتصادات الناشئة؛ إذ يمثل التضخم تهديدًا دوريًّا لكل من روسيا، والهند، وتركيا، والبرازيل، والعديد من المقاطعات الصينية. وطبيعي أن تسعى هذه الدول إلى مكافحته، لكن أهدافًا أخرى خفية تؤخر حدوث ذلك، فالتضخم يشبه نوعًا من السم حلو المذاق الذي يشكل

إغراءً لا يقاوم حتى للاقتصاديين من ذوي النية الحسنة.

مثلًا، التضخم يفيد في إنعاش الاقتصاد؛ إذ يحفز المستهلكين على الشراء الفوري خشية ارتفاع الأسعار مرة أخرى، وهو وسيلة فاعلة جدًّا لتخفيض القيمة الاسمية للدين، ويقدر الخبراء أن ما يعادل (50%) من الديون طويلة الأجل في الماضي قد ألغيت عمليًّا بسبب التضخم.

وهكذا يبدو التعامل مع التضخم مغريًا، لكن المخاطر البعيدة المدى ليست قليلة، فالتضخم يدمر قيمة العمل (أي ارتفاع الأسعار بمعدل أكبر من زيادة الرواتب) ورأس المال والاستثمارات. لكن الاقتصادات المتقدمة تتجاهل هذه التحذيرات؛ لأنها تسعى في الدرجة الأولى إلى حل مشكلة الانكماش الاقتصادي، وفي الحقيقة يمكن أن يؤخر الانكماش تعافي الاقتصاد؛ فيميل المستهلكون إلى انتظار هبوط الأسعار قبل الشراء، أو يفاوضون بشراسة للحصول على تخفيضات كبيرة.

بالرغم من ذلك، تبقى مخاطر التضخم قائمة على المدى البعيد، فلم يسبق أن وصل حجم الأصول السائلة(*) على

(*) النقد، والممتلكات جميعها التي يمكن بيعها أو تحويلها إلى نقد من دون خسارة حقيقية في قيمتها. وبحكم التعريف، فإن الأوراق النقدية والحسابات الجارية هي الأصول الأكثر سيولة. (المترجم).

المستوى العالمي إلى هذا الحد. فقد أصدر المجلس الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي أوراقًا نقدية بقيمة تجاوزت قليلًا الـ (2.2) تريليون دولار لتجنب الانكماش الاقتصادي. وقد نمت الميزانيات العمومية للبنوك المركزية لمجموعة السبعة من (3.4) تريليون دولار في عام (2006م) إلى (10.5) تريليون دولار في عام (2014م)، وتتجاوز الأصول السائلة المدرجة على حسابات كبريات الشركات الدولية الآن خمسة تريليونات دولار.

في الاقتصادات الناشئة يترافق هذا الفائض النقدي مع انفجار في الدخل، فقد ارتفعت الرواتب بسرعة في كل من الصين والهند، وفاقت مجموع الزيادات التي حدثت خلال عقدين كاملين بمعدل يتراوح بين (20% و25%) في السنة. حتى وقت قريب، فإن أسعار السلع - المواد الخام والمواد الغذائية - زادت من تأثير التضخم، وقد ترافق هذا مع نشوء طبقة وسطى جديدة متلهفة إلى الاستهلاك في العديد من الدول. مثلًا، النفط، الذي ظل سعره يتذبذب بين (30 و35) دولارًا للبرميل قفز ليتجاوز الـ (100) دولار عام (2014م)، وبالرغم من أنه عاد فهبط إلى (40) دولارًا إلا أنه - مثلما يبدو - سيعاود ارتفاعه في المستقبل؛ فأسعار السلع تتغير دومًا بشكل دوري.

كل يمارس اللعبة على طريقته؛ فهؤلاء الذين يعانون التضخم سعداء ضمنًا بهذا النوع الخفيف من الإدمان، في حين

أن أولئك الذين لا يعانونه يودون لو كان لديهم القليل، وربما نسي هؤلاء تساؤلًا طالما أرَّق ميلتون فريدمان: «هل التضخم ضريبة من دون سند قانوني؟»، وعاجلًا أم آجلًا، سيستشري (توظيف التضخم) عبر الاقتصاد العالمي بأكمله، وهنا تكمن المشكلة.

◈◈◈◈

64

هل يستطيع المستهلكون أن يكونوا منتجين أيضًا؟

تشكل الشركات اليوم جزءًا مهمًّا من بنية بيئتنا اليومية، فلها دور رئيس في توليد الثروة من خلال قنوات الأبحاث والتطوير، والإنتاج، والمبيعات، والتوزيع وغيرها. لكن الأمر في الماضي لم يكن دومًا هكذا، وقد لا يستمر على ما هو عليه في المستقبل أيضًا.

ويمكن القول إن الشركة بمفهومها الحالي هي نتاج الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر، لكن الشركات كانت موجودة قبل ذلك بكثير، فقد تأسست شركة فينيتيان أرسنال لصناعة السفن عام (1104)، وغدت أكبر شركة في أوروبا في القرن الرابع عشر، وكان يعمل فيها آنذاك أكثر من ثلاثة آلاف عامل. أبعد قليلًا باتجاه الشمال حيث تأسست الرابطة الهانزية في عام (1241)، وكانت مؤسسة تجارية حقيقية تضم مجلسًا للمديرين ومجلسًا تشريعيًّا. وأخيرًا هناك ستورا (أصبح اسمها اليوم ستورا- إينسو) أقدم شركة أوروبية لا تزال مستمرة في العمل حتى الوقت الحاضر، مع سجل حافل من الأرقام القياسية، وقد تأسست عام (1288) في السويد.

على أي حال، كانت هذه الشركات في الماضي نوعًا من الاستثناء، أما في أيامنا هذه فمن الصعب تصور قيام الاقتصاد من دون شركات. حتى الآن على الأقل، مثلما هو معلوم، ترتكز العلاقات الاقتصادية على نموذجين رئيسين اثنين: النموذج (B To C) أو العلاقة التجارية بين الشركة والمستهلِك، والنموذج (B To B)؛ إذ تتم العمليات التجارية بين شركتين اثنتين. مع ذلك فإن ثورة حقيقية قد حدثت اليوم وأثمرت نموذجًا جديدًا كليًّا: (C To C) أو العلاقة التجارية بين طرفين من المستهلكين (تسمى أيضًا علاقة الند للند).

يستطيع أي شخص اليوم إنتاج المعلومات ونشرها من دون الحاجة إلى أن يكون عاملًا في صحيفة، وذلك بكتابة مدونة مثلًا، ويمكن أيضًا نشر كتاب أو ألبوم موسيقي عبر الإنترنت (ويمكن بيعه أيضًا) من دون الحاجة إلى مؤسسة نشر أو شركة تسجيل. نستطيع أيضًا توليد الطاقة الكهربائية على شرفتنا أو في الحديقة المحيطة بالمنزل باستخدام ألواح الطاقة الشمسية أو عنفات توليد الكهرباء بقوة الرياح، ثم نبيعها إلى جهات تستفيد منها.

أكثر من ذلك، مع ظهور الطابعات ثلاثية الأبعاد، سيكون بإمكان المستهلك قريبًا صناعة نماذج بسيطة في المنزل، مثل الأحذية، والأدوات، والنماذج الأولية، وغيرها، ويمكنه إصلاح وتعديل ما أنتجه باستخدام تطبيقات من الإنترنت.

لأول مرة منذ مئتي عام لن يكون بإمكان الشركات احتكار الإنتاج، وسيكون بوسع المستهلكين - قريبًا - المشاركة في الاختراعات التقنية وفي إنتاج البضائع، والخدمات، والمعلومات.

وبإمكان المخترع اليوم بعد تطوير النموذج الأولي أن يبحث عن تمويل من خلال (التعهيد الجماعي)، ويمكنه تحسين اختراعه عن طريق طلب المساعدة إلى شبكات التواصل الاجتماعي، ويستطيع تسويقه بنجاح في الأوساط المناسبة بالاستفادة من المزايا التي تقدمها مجموعات الفيس بوك (Facebook Group).

وإذا كان بناء هذا الاقتصاد الجديد سيجري بشكل رئيس خارج إطار عالم الأعمال التقليدي، فهذا لا يعني أن الشركات قد أُقصيت؛ إذ سوف تزود النماذج الاقتصادية (C To C) بما يلزمها من البنى التحتية التي لا يستغنى عنها، مثل الشبكات الرقمية، وتقنيات الاتصالات، أو أنظمة الدفع المأمونة. علاوة على ذلك، ستسعى الشركات إلى شراء الأفكار التجارية الناجحة، أو تتولى التوزيع على المستوى المحلي أو العالمي، وتوسِّع بذلك سوق المبيعات العالمية.

كل ما سبق يبشر بتحسن قادم في فرص العمل التي لن تقتصر على الشركات وحدها، بل ستمتد إلى عالم الأفراد على صورة أنشطة واستثمارات مستقلة، هذا على الأقل ما يؤمّله الجيل الجديد. سيجزَّأ الاقتصاد وتتعدد الجهات الفاعلة فيه، وربما هذا ما يجب أن يكون عليه اقتصاد السوق.

◆◆◆◆

65

بم يفكر اليابانيون؟

تعاني اليابان منذ خمسة عشر عامًا ركودًا اقتصاديًّا تحاول جاهدة النهوض منه. لم يكن الأمر على هذا النحو في الماضي، فقد جاء وقت كانت فيه اليابان قوة قائدة حقيقية على مستوى الاقتصاد العالمي. أول مرة زرت فيها اليابان في مطلع السبعينيات، كان الناتج المحلي الإجمالي آنذاك لا يتعدى (200) مليار دولار، وبحلول عام (1995م) ارتفع ليصل إلى (5.3) تريليون دولار؛ أي بمقدار (26) ضعفًا! استفاد الاقتصاد الياباني من الدينامية الخاصة لشركاته والقدرة غير العادية على التصدير، يضاف إلى ذلك تشكل الطبقة الوسطى الجديدة في اليابان ودول شرق آسيا، لكن العامل الأهم من ذلك كله هو الدافع الاستثنائي الذي يمتاز به الشعب الياباني.

في أثناء زياراتي أحد المصانع اليابانية، لاحظت أن العمال يربطون عصبات خاصة على أذرعهم، وحين سألت عن معنى ذلك قيل لي: «إنهم في حالة إضراب عن العمل». نعم، إضراب عن العمل فيما هم على رأس عملهم! في ما بعد شاهدت تظاهرات يشارك فيها عمال غاضبون تنطلق في الشوارع. لا

شيء هنا يختلف عما يمكن أن نصادفه في بلد آخر سوى أن التظاهرة كانت منظمة تنظيمًا رائعًا، وكان المتظاهرون يتوقفون بكل تهذيب عند إشارات المرور بانتظار الضوء الأخضر. مقارنة بذلك، تبدو التظاهرات التي ألهبت شوارع أوروبا والولايات المتحدة في الستينيات والسبعينيات بمثابة فوضى صرفة.

في عام (1979م) أجرى معهد دنتسو للدراسات البشرية دراسة استقصائية لمعرفة الكلمات التي يفضل اليابانيون استخدامها (وهي فكرة جيدة لتحديد منظومة القيم المجتمعية)، وكانت المفردات التي احتلت المرتبة الأولى: (دوريوكو، نينتاي، أريغاتو، سيجيتسو، وكانجو). بالنسبة إلى أولئك الذين ليسوا خبراء بلغة الساموراي فإنها تعني: (الجهد، والمثابرة، والامتنان، والولاء، والثبات). وهكذا، فإن منظومة القيم اليابانية موجهة بالكامل نحو الفاعلية والعمل والمثابرة. وهناك طرفة تقول إنه عندما يبكي طفل في اليابان؛ لا تقول له الأم (اهدأ) بل (ثابر يا صغيري).

وفي عام (1992م) أجرى المعهد نفسه دراسة مماثلة للتحقق مما إذا كان للنمو الهائل في البلد أثره في منظومة القيم، وكانت الكلمات الأولى هذه المرة (سوف نجنبكم النسخة الأصيلة باللغة اليابانية): الجهد، والإخلاص، والحرية،

والسلام، والمحبة. في غضون سنوات قليلة تحولت قيم اليابانيين من نظام قائم على الفاعلية والمجتمع، إلى نهج أكثر توجهًا نحو الناس، نحو السعادة الشخصية والقيم والمشاعر الفردية (انظر السؤال (68): ما آلية تطور منظومة القيم؟). وقد لمست مقدار التطور ذاته مع طلبتي اليابانيين، فقد كان حلم كل منهم الانضمام إلى شركة كبيرة، كي يأخذ مكانه في (السلم الوظيفي)، ثم بعد حياة طويلة حافلة بالولاء والخدمة الجيدة، يمكنه الارتقاء إلى القمة للاستمتاع بالتقدير غير المشروط. ما من داع إلى البحث عن المسار السريع، ولا حتى لمجرد التفكير - ولو لثانية - بالانتقال إلى شركة أخرى، لكن ما سبق لا ينطبق على النساء بالطبع.

تطورت اليوم منظومة القيم والرغبات لدى العديد من الطلبة اليابانيين، ولم يعد هناك فارق حقيقي يميزهم عن نظرائهم من الطلبة الأمريكيين والأوروبيين في هذا المجال؛ إذ يتشاركون معهم الرغبة ذاتها في تحقيق النجاح السريع، مع عدم التردد في تغيير الشركة عندما تدعو الحاجة إلى ذلك، يضاف إلى ذلك - بالطبع - الحرص على التخطيط لتمضية عطلات رائعة. أما بالنسبة إلى النساء اليابانيات فما عليك إلا التجوال قليلًا في شوارع جينزا - منطقة متاجر الأزياء في طوكيو - ورؤية ملابسهن لتدرك أن تغيرًا جذريًّا قد حدث.

منذ وقت طويل أخبرني مدير شركة أمريكية ساخرًا: «الطريقة الوحيدة للنجاح في التنافس مع اليابانيين هي تأخير تقدمهم، من خلال تلويثهم بمنظومتنا الأخلاقية». أحيانًا أتساءل إذا ما كنا قد حققنا نجاحًا يفوق توقعاتنا في هذا المجال.

◆◆◆◆

66

ما سر تفوق الإنجليزية؟

لم كل هذا الهوس باللغة الإنجليزية؟ وكيف غدت اللغة الأولى المهيمنة على مناهج التعليم، ووسائل الإعلام، وحتى على لغة الشارع في معظم دول العالم؟ لقد أصبحت الإنجليزية فعليًّا لغة العصر المشتركة، والناقل الموجِّه الرئيس للاتصالات في حياتنا المُعَوْلَمة. أكثر من (1.5) مليار شخص حول العالم يتحدثون الإنجليزية اليوم (بحسبانها لغتهم الأولى أو الثانية). هل السبب في ذلك سهولة تعلمها؟ الجواب: نعم، ولا. فمن جهة أولى يمكن لأي كان التحدث بالإنجليزية بمجرد حفظ (800 إلى 1000) كلمة، من جهة ثانية تتربع الإنجليزية على قمة لغات العالم من حيث عدد مفرداتها؛ إذ يضم معجم أكسفورد ما يزيد عن (500) ألف معنى؛ أما قاموس لاروس للغة الفرنسية فلا تتعدى مفرداته الـ (90) ألفًا. تعلم الإنجليزية سهل في البداية، ثم يغدو أصعب كلما تقدمت عملية التعلم. لم إذًا اتفق الجميع على كونها اللغة العالمية الأكثر ملاءمة؟

الإنجليزية هي لغة المهاجرين؛ لذا كان تبسيط قواعدها ضروريًّا لتتناسب مع المهاجرين من ذوي المستوى التعليمي البسيط

والمهارات اللغوية المتواضعة، في كل من الولايات المتحدة وكندا، وأستراليا. من جهتها، تعد الفرنسية لغة أكثر تعقيدًا وصعوبة في المرحلة الأولى من تعلمها، ويمكن مقارنة هذه المرحلة بمراسم القبول(*) التي وضعت أسسها الأكاديمية الفرنسية، ويخضع لها المنتسبون إلى جمعيات النخبة الفكرية. وهناك اليوم على الأكثر (300) مليون متحدث بالفرنسية حول العالم.

يمكن عدّ سيادة الإنجليزية أيضًا نتيجة لتأثير حضارتين عظميين متعاقبتين: بريطانيا العظمى، والولايات المتحدة الأمريكية؛ فالأولى غزت العالم بقوتها العسكرية وثورتها الصناعية، والثانية باقتصادها الجبار. نتيجة لذلك، تدار معظم الشركات العالمية الكبرى اليوم بالإنجليزية، وقد عززت الثورة التقنية هذا التأثير، فغدت الإنجليزية لغة الحاسوب، والإنترنت، والعلوم.

في عام (2011م) بلغ عدد الأبحاث العلمية المنشورة بالإنجليزية: (212،394) دراسة في الولايات المتحدة، إضافة إلى (46،035) في بريطانيا، و(29،114) في كندا، و(20،603) في أستراليا. في السنة ذاتها نشرت اليابان (47،106) مقالة، وألمانيا (48،259)، وفرنسا (31،686)، وسويسرا (9،469)،

(*) في الأصل Rite-Of-Passage: طقس يمثل مرحلة مهمة في حياة شخص ما، مثل الولادة، أو تدشين الانتقال من مرحلة إلى أخرى (الطفولة إلى مرحلة البلوغ لدى بعض الحضارات)، أو الزواج، أو الموت وغيرها. (المترجم).

وبلجيكا (7،484) معظمها باللغة الإنجليزية، وهكذا يزداد النشر العلمي بالإنجليزية باضطراد خارج حدود العالم الأنجلو- سكسوني.

التلفاز والمسلسلات الكوميدية واليوتيوب لها تأثيرها أيضًا في هذا المجال. في الدول الإسكندنافية، لا تُدبلج المسلسلات الناطقة بالإنجليزية إلى اللغة الوطنية، بل يكتفى بعرض شريط الترجمة؛ فالدبلجة مكلفة للغاية في بلدان قليلة السكان، وهكذا اعتاد الأطفال في كل من السويد والنرويج والدانمارك سماع الحوار في برامجهم المفضلة باللغة الإنجليزية، واليوم يتحدث معظم الإسكندنافيين الإنجليزية بطلاقة.

حتى في سويسرا، حيث يتكلم الناس أربع لغات (الألمانية، والفرنسية، والإيطالية، والرومانش(*))، لغات يفهمها السويسريون لكن ليس بالضرورة التحدث بها جميعها. وبحسب الوزير السابق جان باسكال ديلاموراز: «يعود سبب انسجام السويسريين إلى سبب بسيط، وهو أن بعضهم لا يفهم بعضًا». لهذا الشكل من التواصل بالطبع حدود، واليوم عندما يرغب السويسريون في التواصل - خاصة في مجال الأعمال - فإنهم يستخدمون الإنجليزية.

(*) تطورت اللغة الرومانشية عن اللغة اللاتينية غير الرسمية (أو المحكية، غير الكلاسيكية)، مثلما فعلت الفرنسية والإيطالية والإسبانية. وفقًا لرابطة اللغة الرومانشية (ليا رومانتشا)، اليوم هناك نحو (60) ألف شخص يتحدثون هذه اللغة، ومعظمهم في كانتون غراوبوندن بسويسرا. (المترجم).

لا تـزال اللغـة الإنجليزيـة مسـتمرة في تطورهـا السـريع. غالبيـة مـن يتحدثـون اللغـة الإنجليزيـة اليـوم لم يعـودوا مـن المهاجريـن، بل مـن النـاس الذيـن يسـتخدمونها لغـة ثانيـة. ولكي تكـون مفهومـة في أنحـاء العـالم جميعهـا، تحولـت الإنجليزيـة الأصيلـة علـى يـد رجـال الأعمـال والسـائحين إلى لغـة معياريـة عالميـة مبسـطة يمكـن للجميـع فهمهـا بسـهولة.

وكنتيجـة غـير متوقعـة، فـإن البريطانيـين والأميركيـين الذين يتكلمون لغتهم بطلاقة ويتقنون كل تعقيداتها باتوا يعانون صعوبة فهم العديد من الناس لهم في أنحاء العالم جميعها. البساطة فضيلة! حتى في مجال اللغة.

◆◆◆◆

67

هل تنتمي إلى (الثقافة الثالثة)؟

هوارد بيرلموتر، وهو أستاذ في كلية وارتون للأعمال في فيلادلفيا والمعهد الدولي للتنمية الإدارية Imd في لوزان؛ معروف جيدًا في الأوساط الإدارية بآرائه حول تأثير منظومة القيم في اختيار المديرين التنفيذيين في الشركات العالمية، ورؤيته المبسطة للآليات التي يتم بوساطتها انتقائهم. تعتمد الشركات العالمية - بحسب هوارد - ثلاثة مناهج ثقافية في اختيار رؤسائها: الأول، منهج (المركزية الإثنية(*)) (إثنوسنتريك) الذي يركز على اختيار القادة من البلد الأصيل للشركة. هنا حتى مع تطور الشركة الوطنية إلى عالمية لا يزال تعيين رؤساء الشركات الفرعية المنتشرة عبر العالم يشترط كونهم من (قومية) الشركة الأم، وهذا هو الحال اليوم في العديد من الشركات الآسيوية، ولا سيما اليابانية والكورية والصينية. يضمن هذا النهج الحفاظ على ثقافة متماسكة داخل الشركة

(*) في الأساس: ethnocentric. النزعة الاستعراقية. أو الإيمان بتفوق أمة ما على باقي الأمم. أما في عالم الأعمال فيستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى سياسة التوظيف في الشركات التي تقتصر فيها مناصب كبار المديرين على حاملي جنسية الشركة الأم. (المترجم).

ومنظومة قيم منسجمة. أما الجانب السلبي فهو صعوبة ارتقاء العاملين من الجنسيات الأخرى داخل الهرم الوظيفي.

بالنسبة إلى منهج المركزية المتعددة (بولي سنتريك) فيقوم على تعيين الرؤساء من جنسية بلد الشركة الفرعية، ووفق ذلك يرأس الفرع الألماني للشركة مدير تنفيذي ألماني، والفرع الصيني رئيس صيني وهكذا... مغزى ذلك أن تتمكن الشركة الأجنبية من تعزيز روابط الاندماج مع البلد المضيف. من جهة أخرى، يمكن أن يقود هذا النهج إلى تشظي ثقافة الشركة.

أخيرًا هناك منهج المركزية المثلى (جيوسنتريك)، حيث يُختار الرئيس حسب كفاءته بغض النظر عن جنسيته، وقد أصبح هذا النموذج مستخدمًا بشكل أكثر تواترًا لدى الشركات العالمية، فلم يعد مستغربًا رؤية قيادة (أجنبية) في (شركة وطنية الطابع) طالما يديرها مديرون محليون. على سبيل المثال، هناك اليوم ألماني وأسترالي وفرنسي يديرون شركة نستله السويسرية متعددة الجنسيات.

يقود هذا النهج الأخير إلى ظهور ما يسمى (الثقافة الثالثة)، التي تنبع من العيش في إطار منظومات القيم المتفاعلة، بحسبانها نوعًا من المزيج الهجين الذي ولد في بيئة عولمة الشركات والاتصالات وتطور فيها.

في البداية كانت الثقافة الثالثة لا تعدو كونها بيئة مشتركة تمتزج فيها الثقافات المتنوعة للشركات، أما اليوم، فقد تطورت لتصبح ثقافة قائمة بذاتها ونمط حياة جديدًا يملك إعلامه الخاص كشبكة سي. إن. إن، والفايننشال تايمز أو الوول ستريت جورنال. إضافة إلى مواقع التواصل الاجتماعي (فيس بوك، وسكايب، وتويتر) التي أضافت بعدًا جديدًا إلى طرق التواصل بين الناس في بيئة الثقافة الثالثة.

من مظاهر هذه الثقافة أيضًا ذوقها الخاص في الملابس؛ من السترة وربطة العنق إلى الهودي(*) الخاصة بالشباب، وعلاماتها التجارية المفضلة كتلك التي نصادفها في مختلف مطارات العالم، وطريقة تواصلها الخاصة باستخدام نموذج مبسط من إنجليزية (البيدينج(**)) التي كانت ترعب أساتذة أكسفورد الموقرين، وما تزال.

مكنت الثقافة الثالثة المجتمع العالمي من التواصل وتطوير هويته الكونية الخاصة، ومع ذلك فقد أدت، بشكل أو بآخر، إلى نوع من التهافت العقلي مثلها في ذلك مثل العديد من الصفات المشتركة؛ لذا على الناس الذين يعيشون وسط الثقافة الثالثة

(*) hoodie. سترات ذات قبعة مع أكمام أو من دونها يرتديها المراهقون. (المترجم).

(**) في الأصل: Piding. لغة مبسطة تتكون بشكل رئيس من الإنجليزية، وهي تستخدم في التواصل بين الصينيين والأوروبيين. (المترجم).

عدم حسبانها بديلًا يلغي وجود ثقافتهم المجتمعية الأصيلة.

يمكن قول الشيء نفسه عن الشركات التي يجب أن تكون قادرة على تبني ثقافة عالمية تحقق للجميع مساواة في الفرص؛ من دون إهمال الثقافة القومية التي تمنح الناس الراحة والإحساس بالانتماء. في رحلة العولمة، هناك دومًا خطر سقوط الشركات في شرك الضحالة. على الشركات الكبرى أن تكون كالأشجار؛ تندفع بثبات نحو الأعلى وفي الوقت نفسه تضرب بجذورها أعمق فأعمق في تربة ثقافتها الأصيلة.

◈◈◈◈

68

ما آلية تطور منظومة القيم؟

تتطور منظومة القيم وعلاقة الفرد بمجتمعه وعمله مع مرور الزمن. لكن ما هي الآليات التي يحدث وفقها هذا التطور؟ وبأي سرعة يتم ذلك؟

هناك أربع مراحل متميزة تسلط الضوء على هذه الفكرة. الأولى مرحلة (العمل الشاق)، وتكون عندما يتطلع الناس إلى العمل باجتهاد ساعات طويلة، مثلما هو الوضع في كوريا الجنوبية، إذ تجاوز متوسط ساعات العمل سنويًّا (2305) ساعة عام (2013م) مقابل (1600) ساعة في فرنسا في العام نفسه.

المرحلة الثانية (مرحلة الثروة)، وفيها لا يكون العمل الشاق هدفًا بحد ذاته، بل وسيلة لتحقيق هدف آخر هو الدخل المرتفع. في سنغافورة مثلًا يعمل الناس بجهد، لكنهم يتوقعون دخلًا أعلى مقابل ذلك.

ثم تأتي المرحلة الثالثة (المشاركة المجتمعية)، وفيها لا يعود العمل والدخل كافيين؛ فالناس يريدون أن يُستشاروا في

أهداف الشركة، ولا يعودون راغبين في أن يظلوا - ببساطة - مجرد تابعين ينفذون الأوامر. تعد اليابان حاليًّا مثالًا على هذه المرحلة، وهنا يظهر أول مرة نظام القيم الجمعية الذي يرتبط فيه نجاح الفرد بنجاح المجتمع ككل.

في المرحلة الرابعة انقلاب جذري عن سابقتها، ففي هذه المرحلة الأخيرة يتحول نظام الأمة الأخلاقي الجمعي إلى منظومة فردية، فلم تعد استشارة الفرد في القرار كافية، ويريد الناس التعبير عما في عقولهم، هذه هي مرحلة (الإنجاز الذاتي) التي يعد الفرد نفسه فيها أكثر أهمية من الدولة التي يعيش فيها، أو الشركة التي يعمل بها، فحياته الخاصة تصبح فوق الحسابات الأخرى كلها، ويمكن تصنيف هذه المنظومة على أنها سيطرة (الأنا) الشخصية. معظم الناس في أوروبا وأمريكا يعيشون اليوم هذه المرحلة.

من وجهة نظر تنافسية، فإن المراحل المرتبطة بالقيم الجمعية تناسب - إلى حد بعيد -عملية التصنيع، حيث ينفذ الناس العمل المطلوب منهم من دون طرح الأسئلة. بالمقابل تتسق مرحلة القيم الفردية مع المجتمعات التي تعطي أولوية للابتكار، وتفتح آفاق التشكيك بنظام التفكير السائد وتسعى إلى تطويره.

تمر البلدان جميعها بهذه المراحل الأربع، فقد اختبرت أوروبا مرحلة العمل الشاق في مطلع القرن العشرين، وفي عام

(1950م) بعد الحرب العالمية الثانية دخلت مرحلة إعادة الإعمار وتوليد الثروة. أما في عام (1968م) فقد أصبحت الأولوية للمشاركة المجتمعية. في الوقت الحاضر تسود المنظومة الفردية حياة الأوروبيين، وتمر اليابان بمرحلة التحول من القيم الجماعية إلى القيم الفردية، وقريبًا سيحدث الشيء نفسه في الصين.

قبل هذه المراحل الأربع، يصعب تحديد نظام قيم مشترك وحيد ومهيمن، هذه هي حال العديد من الدول الإفريقية. لكن، ماذا يحدث بعد هذه المراحل الأربع؟ ستحدد أجيال الغد منظومات قيمية أخرى تتخطى الحدود الوطنية، مثل البيئة، والتنمية المستدامة، وأنظمة الحكم، وسيتم تبادل الأفكار وتلاقحها من خلال مجموعات الشبكات الاجتماعية. إن إحساس الأجيال القادمة بالانتماء لن يعود مقتصرًا على الأمة وحدها، بل سينبع من منظومة قيم كونية تتشاركها بكل حرية في ما بينها، وانفتاح على الآخر في بيئة عالمية متحررة من قيود الحدود.

ولعل أفضل ما يمكن أن تفعله الأمم هنا هو إدارة هذا الانتقال إدارة صحيحة وسلسة، والتأكد من أن التشريعات تتطور بما يتماشى مع تطلعات الناس المتغيرة، فلا يمكن لأي دولة أن تمنع التطور الطبيعي لنظم القيم من الجماعية إلى الفردية، وإذا حاولت ذلك، فسوف تواجه - حتمًا - مخاطر الفوضى والاضطرابات الاجتماعية.

◈◈◈◈

69

هل أطفالنا أذكياء؟

بالتأكيد هم كذلك! المشكلة هي تحديد نوع الذكاء لديهم، وهنا تتعقد الأمور قليلًا. في اللغة اللاتينية يعود أصل كلمة ذكاء (Intelligere) إلى الجذر (Ligare) الذي يعني (الربط)، وبهذا يمكن تعريف الذكاء بأنه القدرة على الربط بين المفاهيم.

لسوء الحظ، تفضل معظم أنظمة التعليم التعامل مع المعلومة الصرفة، بمعنى آخر تلجأ إلى حشو المعلومات في عقول الطلبة بدلًا من مساعدتهم على اكتساب القدرة على التفكير بأنفسهم، وهو الشيء الذي طالما افتقرت إليه مناهج التعليم على مر العصور. كان في غرفة صفي ملصق جداري كتب عليه اقتباس عن بلوتارخ: « ليس عقل الطالب فراغًا يجب ملؤه، بل شعلة ينبغي إيقادها». هناك أبعاد متنوعة لذكاء الطفل: منطقية، واستنتاجية، ومفاهيمية، وفنية، وبديهية وغيرها. وقد يكون الذكاء من النوع الشفهي أو الكتابي. الهدف من التعليم مساعدة الطفل على إدراك نوع الذكاء لديه، ثم تطويره. مع ذلك، تركز أنظمة التعليم الحديثة - بشكل رئيس - على

الذكاء المنطقي. لماذا؟ لأنه من الأسهل بكثير تعليم الطفل أن (2+2=4) وتصحيح النتيجة بعد ذلك.

أحيانًا أسال طلبتي: «كيف يمكن إنقاذ اليونان من أزمتها الاقتصادية؟»، فتأتيني إجابات عديدة جميعها تحتمل الصحة. يحتاج الطلبة إلى التفكير، وإلى أن يقدروا على ربط الأفكار بالحقائق من أجل الخروج برأي ومن ثم الدفاع عنه بسوق الأمثلة. باختصار، عليهم اكتشاف جوهر الذكاء؛ بناء محاكماتهم ومن ثم تقويمها؛ أي التفكير بالاعتماد على أنفسهم، وقد يتفوقون علي - أحيانًا - في هذا المجال.

إن الهيمنة القوية للعلوم الدقيقة في مناهج الكليات والجامعات مثيرة للقلق، ومن المؤكد أن للرياضيات والفيزياء والكيمياء دورًا في تدريب عقل الطالب، لكن دعونا لا نبالغ هنا إلى حد حسبان شخص غير بارع في حل المعادلات التربيعية غير مؤهل لدراسة الاقتصاد أو علم النفس، هذه الطريقة في تقويم قدرات الطلبة تعيق اكتشاف قدرات ذوي العقول النظيفة التي تعتمد على قدراتها الحدسية، وتمنعها من التعبير عن خصوصية ذكائها.

لسوء الحظ، نظم التدريس غالبًا ما تكون معيارية؛ فهي تفرض نوعًا محددًا من الذكاء على الآخرين، وترغم الطلبة على إثبات تفوقهم فيه. كنت دائمًا حذرًا من هذا المنهج، فالشخص

الذي يفكر جيدًا ليس بالضرورة أن يكون خطيبًا لامعًا أو كاتبًا ناجحًا، ومن يعرف كل شيء ليس بالضرورة أفضل المبتكرين.

كيف وصل التعليم إلى هذه الحال؟ إن فكرة إرساء المعرفة اعتمادًا على الأسس المنهجية للعلوم الدقيقة صحيحة، لكن التطرف في ذلك النهج شيء سخيف، فحتى كبار المفكرين العالميين لم يؤيدوا وصول الأمر إلى هذا الحد.

من الضروري أحيانًا التشكيك في المبادئ القائمة والتفكير بشكل مختلف للوصول إلى مستوى رفيع من التفكير والابتكار. نادرًا ما تنجح الدول الآسيوية التي أثبتت تفوقها في مناهج العلوم الدقيقة، مثل كوريا الجنوبية واليابان، في تطوير الابتكارات الأساسية؛ فهناك يُحصر التفكير الجيد في إطار مرجعي محدد سلفًا.

العقل المنطقي يعيد إنتاج الماضي، ولكن المخيلة تبني المستقبل (انظر السؤال (70): هل الرياضيات خطيرة؟). فهل تُعِدُّ العملية التعليمية الحديثة الأطفال وتدربهم على تطوير هذا النوع الأخير من الذكاء؟ إذا لم تكن قادرة على ذلك فسيكون ذلك خطأ فظيعًا بحق مستقبلهم.

◈◈◈◈

70

هل الرياضيات خطيرة؟

هناك اقتصاديون يعرفون طريقة الحساب، واقتصاديون آخرون يقومون به فعلًا. في منتصف القرن العشرين، كان جون ماينارد كينز يراقب بحذر سعي الاقتصاديين إلى رفع حالة معارفهم إلى مستوى العلوم الدقيقة، وكان شعوره بالقلق في محله. في السنوات الأخيرة، منح أصحاب نظريات متطورة قدموها على صورة معادلات رياضية معقدة معظم جوائز نوبل في الاقتصاد، وكان لدى الفائزين جميعهم تقريبًا خلفية علمية، لا سيما في الفيزياء. لم تكن النتائج مثمرة في الواقع: في عام (1971م) فاز كل من مايرون سكولز وروبرت ميرتون بجائزة نوبل في الاقتصاد على طريقتهما الجديدة في حساب سعر المشتقات، وبناء على ذلك، عُيّنا في مجلس إدارة مؤسسة (صندوق التحوط طويل الأجل لإدارة رأس المال)، وفي عام (1998م) بلغت خسارة هذه المؤسسة (4.6) مليار دولار، ثم أعلنت إفلاسها بعد ذلك بعامين. في الوقت الحاضر، تفضل لجنة نوبل للاقتصاد منح الجائزة للاقتصاديين من المتخصصين السلوكيين.

لمَ يعدّ النهج الرياضي غير مناسب إلى هذا الحد؟ ربما لأن الاقتصاد يهتم أساسًا بالخيارات وليس بالحسابات، ففي عالم إدارة الشركات لا يقل الذكاء العاطفي أهمية عن الذكاء العقلاني. ما يهم حقًّا هو القدرة على التفاوض وفهم الثقافات المختلفة، والنجاح في التعامل مع البيئة والقضايا الأخلاقية، وإدارة العلاقات بذكاء مع وسائل الإعلام، والقدرة على تحفيز الموظفين، وإدارة العلامات التجارية وإرضاء العملاء. كل هذه المهارات حاسمة للنجاح لكنها نادرًا ما تُدرس. لم يبتكر نيكولاس هايك ساعات (سواتش) انطلاقًا من صيغة رياضية، ولا تدير أنجيلا ميركل ألمانيا باستخدام المعادلات، بالرغم من خلفيتها العلمية. بالإضافة إلى ذلك، يدمر الهوس بالرياضيات الحياة الأكاديمية لكثير من الشباب ذوي الذكاء المختلف (غير الرياضي). لماذا؟ أولًا، بسبب الحاجة إلى الاختيار، فعندما يتنافس مئات الشباب للوصول إلى الكليات الاقتصادية، يصبح من الضروري انتقاء (المناسبين) منهم، ويتم ذلك - عادة - عن طريق امتحان تكون فيه إجابة صحيحة وحيدة لكل سؤال، مثلما في الرياضيات، وهذا يساعد من يقوِّمون النتائج على تصحيح مئات الإجابات بطريقة سريعة وفاعلة، لكن من دون الأخذ بالحسبان أنه عندما يتعلق السؤال بالقضايا الاقتصادية العامة، يمكن أن تكون عدة إجابات مختلفة صحيحة. إن هذا

يتطلب تقويمًا خاصًّا لكل إجابة، ومثل هذه العملية تستهلك الكثير من الوقت.

حين نختار الرياضيات مقياسًا وحيدًا للكفاءات فإننا بذلك نواصل عملية إحباط الشباب الرائعين وتدميرهم، أولئك الذين ليسوا بالضرورة من ذوي التفكير العلمي، نحن بذلك نجبرهم على إتقان المفاهيم الرياضية، أو الإحصائية المتقدمة، التي لن يكون لها فائدة فعلية في مستقبلهم المهني. أكثر من ذلك، فالأرقام سوف تعطي هؤلاء إحساسًا زائفًا بالأمان: «إذا كنت قادرًا على إجراء الحساب فلا بد أن أكون على صواب».

سيقود اختصارعلم الاقتصاد إلى معادلات رياضية - حتمًا - إلى نوع من الفقر العقلي، وسيعوِّق إبداع صغارنا بجعلهم يعتقدون أنه يمكن تحويل أي شيء إلى صيغة رياضية. لسوء الحظ، لا يسير العالم بهذه الطريقة، فهو ليس منطقيًّا أو عقلانيًّا دائمًا. الرياضيات علم رائع، لكن يجب البحث عن الحياة الكامنة خلف الأرقام.

قال ألبرت آينشتاين مرة: «المنطق سوف يقودك من (أ) إلى (ب)، لكن المخيلة تأخذك إلى أي مكان». مع الاقتصار على المنطق سوف نقع في مطب تكرار الماضي؛ أما مع المخيلة فسنصنع المستقبل.

◈◈◈◈

71

هل يمكنكم فهم جيل الشباب؟

قال بيتر دراكر مرة: «تؤثر التغيرات المجتمعية اليوم في الشركات أكثر مما يفعل التغيير في الإدارة». تتم معظم هذه التغييرات بجهود الشباب الذين يطبعون المجتمعات بهويتهم أكثر من أي وقت مضى، فهم أول من اعتمد اليوتيوب والفيس بوك قبل أن تتبعهم الأجيال الأكبر سنًّا، لكن ما الذي يريده جيل الشباب فعلًا؟

أعطى طوفان المعلومات المتدفق من مصادر الإنترنت والمواقع الاجتماعية الشباب انطباعًا زائفًا عن حجم معارفهم، فخلال محاضراتي يقوم طلبتي - على الفور - بالتحقق من صحة المعلومات التي أقدمها مستخدمين أجهزتهم الذكية التي لا تفارقهم أبدًا، وتلمع العيون بهجة عندما يجدون أرقامي أصبحت أقل حداثة ولو قليلًا، لكن حين يأتي وقت معرفة ما تعنيه هذه الأرقام يخيم صمت مطبق. لحسن الحظ، لا يزال لدى الأساتذة ما يضيفونه.

مدى انتباههم محدود للغاية؛ لأن كلًّا منهم بحاجة إلى ستين أصبعًا للتعامل مع لوحات مفاتيح جهازه وأربع عيون لمتابعة

شاشته، ومن الصعب حقًّا لفت انتباههم، ومن شبه المستحيل المحافظة عليه. هم متألقون وأذكياء، ولديهم ملكات الإلهام العقلي، لكن يفتقرون دومًا إلى الإحساس بأهمية بذل الجهد، وينقصهم الصبر، نموذجهم الأعلى أشخاص مثل ستيف جوبز، ومارك زوكربيرغ، وسيرجي برين، ولاري بيج وأمثالهم ممن حققوا نجاحًا باهرًا في سن مبكرة، ويقولون لي دائمًا: «إذا لم نصبح من أصحاب المليارات في سن الخامسة والعشرين فمعنى ذلك أننا فاشلون». قد يكون هذا مبالغًا فيه، ومع ذلك، يجب الحفاظ على حماسهم، ويتوقع العديد منهم أن يبدأ العمل براتب من ستة أرقام، وأن ينجز - فورًا - إستراتيجية عالمية. ربما، من يدري!

هم ميالون إلى التبسيط في اكتساب معارفهم ويبحثون دومًا عن الاختصارات، ولا فائدة ترجى من إخبارهم بالطريقة التي ينبغي لهم اتباعها، فسوف يعملون العكس، أو بالأحرى سيبحثون عن طريقة أسرع وأقل جهدًا للحصول على النتيجة نفسها. معظم الوقت لا يكون هذا مريحًا بالنسبة إليهم، لكنهم - فجأة - يتوصلون إلى نتيجة مهمة. من ناحية أخرى هم ينفقون جل وقتهم في البحث عن البدائل، مثلما عن تبرير أنفسهم، بدلًا من بذل الجهد في إنجاز المطلوب منهم، لم يعودوا يفضلون الشركات الكبرى، وبعد أن كانوا قبل سنوات يحلمون بالعمل في

شركات عالمية يتولون فيها مسؤوليات ضخمة؛ أصبحوا ينظرون بعين الشك إلى أسلوب العمل ضمن إطار الشركة، ويرونه قيدًا يكبل حياتهم المهنية والشخصية.

إنهم شخصانيون ومثاليون في الوقت نفسه، يتمنون العمل في شركات ذات أخلاق رفيعة تهتم بالمجتمع وتحس بالمسؤولية تجاه مستقبله. لهذا السبب، يفضلون بدء حياتهم المهنية في شركات صغيرة أو متوسطة. من الناحية البيولوجية، يتفاعل دماغ المراهق مع الاندفاع الهرموني القوي للدوبامين والأكسيتوسين، ويدفعهم ذلك إلى السعي وراء المتعة رغم المخاطر، وإلى تفضيل محيطهم الاجتماعي على أسرهم. قد يكون هذا مزعجًا أحيانًا، لكنه ثمن النضج على أي حال.

لقد مررنا جميعًا في هذه المرحلة من الحياة، دعونا إذن لا ننسى أن قادة اليوم كانوا في ما مضى يحطمون الكراسي في الحفلات الموسيقية الصاخبة، أو يتنزهزن أشباه عراة مع زهرة مغروسة بعناية في شعورهم، فهذا قد يفسر بعض الأشياء.

◆◆◆◆

72

هل تكمن المشكلة في تهافت الجيل الجديد؟

في نهاية الأسبوع الدراسي يأتي إليّ طلبتي الهنود والصينيون بطلب: «من فضلك أستاذ، هل يمكن أن ترشدنا إلى ما يجب أن نقرأ خلال عطلة نهاية الأسبوع لنغدو أكثر كفاءة في الأسبوع القادم؟»، وكان ذلك دومًا يترك لدي انطباعًا حسنًا. أما طلبتي السويسريون - وهم لا يقلون عنهم ذكاء - فيسألونني: «رجاء أستاذ، متى تنتهي هذه الحصة؟ وهل نستطيع المغادرة باكرًا لممارسة التزلج فنتجنب زحام نهاية الأسبوع؟»، وهذا ما يترك لدي - عادة - انطباعًا أقل حسنًا.

اعتاد كل جيل على عدّ الأجيال التي تليه كارثة، وعلى أن القيم الصحيحة التي اختبرها هو قد تلاشت الآن، الأمر الذي سيؤدي بالتأكيد إلى انهيار المجتمع. مع ذلك، ومع احترامي للجيل الحالي، فإن الأرقام تناقض انطباعنا الأولي وموقفنا غير المنصف. في ألمانيا تبين أن أكثر من (30%) من المراهقين لم يتعاطوا المشروبات الكحولية على الإطلاق مقارنة بـ (13%) في عام (2002م). وفي الولايات المتحدة، انخفض عدد متعاطي المسكرات بين الشباب بمقدار يفوق الثلث خلال العقد المنصرم.

الأمر نفسه ينطبق على العنف؛ فبالرغم من تأثير التلفاز وألعاب الفيديو، غدا الشباب أقل ميلًا إلى العنف في حياتهم اليومية. في (2007م) اعتقلت الشرطة في إنجلترا وويلز (110) آلاف شخص تتراوح أعمارهم بين (10) إلى (17) عامًا لارتكابهم جريمة (أو جنحة) للمرة الأولى، انخفض هذا الرقم إلى (28) ألفًا في عام (2013م). أما مساحة (الانفلات الجنسي) التي ميزت نهاية القرن المنصرم فقد تراجعت إلى حد بعيد، وانخفض عدد المراهقات الحوامل بمقدار (50%) خلال عقدين من الزمن، وقد ساهم الخوف من الإيدز - طبعًا - في تغيير أنماط السلوك الجنسي.

وقد كانت بعض التدابير القمعية فاعلة في هذا المجال. في إسبانيا، على سبيل المثال، تُفرض غرامة (500) يورو على من يفرط في شرب البيرة وسط المدينة، وفي ألمانيا والعديد من الدول الأوروبية، توظف الشرطة بعض المراهقين وتكلفهم محاولة شراء الكحول من المتاجر أو الحانات للتحقق مما إذا كان القانون (قانون حظر بيع الكحول لغير الراشدين) يُنفذ بشكل صحيح، حتى السجائر غدت أقل جاذبية للجيل الجديد، بالرغم من أن بعضهم يفضل تدخين الماريجوانا بدلًا من ذلك.

نضج أبناء هذا الجيل الجديد قبل الأوان بتأثير الإنترنت ووسائل الإعلام التي نبهتهم إلى مخاطر الحياة، وكان للأزمات

الاقتصادية كذلك دورها الفاعل في هذا المجال، وكان من نتائج ذلك أن انتشرت في أوساطهم طبقة (الموظفين ذوي الأجر المتدني) ممن لا يتعدى دخلهم الشهري (1000) يورو. فعلى هؤلاء الشباب الاختيار بين البطالة أو البطالة المقنعة أو العمل بأجور لا تفي كفاءاتهم حقها، إنهم يشعرون بخيبة أمل حقيقية تجاه مجتمع لا يحافظ على وعوده: «لقد درسنا بجد، وبذلنا كل جهد ممكن مثلما طلبتم، والآن نحن لا نحصل على عمل لائق». ليس هناك أجيال جيدة وأخرى غير جيدة، بل أجيال مختلفة، والجديدة منها أكثر واقعية، وأبناؤها أكثر تحررًا من الأوهام، وتشككًا بالعالم الذي ينتظرهم، وهم يفهمون - ربما للمرة الأولى في التاريخ - أن حياتهم ستكون أكثر صعوبة من تلك التي عاشها آباؤهم.

بالعودة مرة أخرى إلى الطلبة، بعد بضعة شهور أصبح طلبتي السويسريون خائفين قليلًا من منافسة زملائهم من بلدان الاقتصادات الناشئة، لقد استيقظوا أخيرًا وبدؤوا ببذل جهد لا يقل عن هؤلاء، وأعتقد أن هذا خبر سار.

◈◈◈◈

73

هل يمكن إنزال الحاسوب المحمول بالمظلة؟

لا يمكن عمل ذلك في أي مكان بالطبع، إلا أنه أمكن في بعض القرى الإفريقية. كانت تلك تجربة فريدة أطلقها نيكولاس نيغروبونتي من مؤسسة Mit عام (2011م)، وهو بالمناسبة أحد آباء العصر الرقمي، وصاحب مبادرة (حاسوب محمول لكل طفل). كانت الفكرة إنزال حواسيب بالمظلات إلى القرى النائية في سيراليون وتنزانيا وليبيريا؛ لاختبار كيف يمكن للأطفال الأفارقة الذين تتراوح أعمارهم من خمس إلى ثماني سنوات استخدامها في تعلم الإنجليزية أو للتواصل في ما بينهم. وكانت الفرضية هي أنهم سيتمكنون من العمل عليها من أي مساعدة.

كانت هذه الحواسيب بدائية بالطبع، ومصممة خصيصًا لتناسب بيئة القرى الإفريقية النائية، وتُشحن بواسطة الطاقة الشمسية أو من خلال آلية ميكانيكية مثل تلك الموجودة في الألعاب ذات الزنبرك، لم يكن ممكنًا استخدامها للوصول إلى الإنترنت، إضافة إلى أن (85%) من الأعطال المتوقعة يمكن أن يصلحها الأولاد، ويستطيعون تشغيل الحواسيب والعمل عليها بأمان. البرامج المحملة غير معقدة، وهي مصممة لتثير لدى

الطفل الرغبة في تعلم اللغة، والكتابة، والحساب من دون أن يكون هناك أي نوع من التدخل البشري الخارجي، وبعد بضع سنوات، ستزور مجموعة من المتخصصين في التعليم هذه القرى؛ لمعرفة كيفية تعامل الأولاد مع هذه الحواسيب، وما الذي تعلموه منها.

تلت ذلك مبادرة أخرى مشابهة أطلقها سوغاتا ميترا، الأستاذ في جامعة نيوكاسل، وقد أصبح معروفًا بفضل تجربته (فتحة في الجدار) التي أجراها في أحد أحياء نيودلهي الفقيرة، فقد ثبت حاسوبًا في الشارع داخل تجويف جدار لمعرفة كيف سيستخدمه الأطفال. برهنت هذه التجربة أن الأطفال نجحوا في تشغيله من دون أي مساعدة، ونظموا أنفسهم تلقائيًّا في مجموعات عمل تتبادل المساعدة في ما بينها. وقد خرج سوغاتا إثر ذلك بنتيجة مفادها أنه ما من فرق جوهري بين الطفل الذي يتعلم استخدام الحاسوب بنفسه، وبين آخر متعلم يتلقى التدريب من مدرس متخصص.

هذه التجارب جميعها برهنت أن التكنولوجيا الحديثة يمكنها أن تكون أدوات رائعة في عملية التعليم، بالرغم من أنه ستكون هناك محاولات وأخطاء وفشل. على سبيل المثال، تتيح برامج Moocs (الدورات المكثفة المفتوحة على الإنترنت) للطلبة متابعة الدروس عن بعد باستخدام الحاسوب. إحدى

أولى التجارب في هذا المجال - وكانت حول الذكاء الاصطناعي - قدمتها جامعة ستاندفورد في العام (2011م)، وسجل فيها (160) ألف طالب، لكن حدود مثل هذه المبادرات تتضح بسرعة، فبعد بضعة دروس انسحب (90%) من الطلبة من البرنامج. ويتساءل المرء هنا: ما هي - يا ترى - طبيعة الأسئلة والامتحانات في هذا البرنامج؟

مع ذلك لا يزال لهذا النوع من التعليم مستقبل واعد، لا سيما في الدول التي يعيش فيها الطلبة في مناطق نائية، مثلما في النرويج أو آيسلاندا، وكذلك الدول الفقيرة التي لا تستطيع مكافحة الأمية، ولعل إظهار كيفية نجاح مناهج التعليم الحدسي إحدى أهم نتائج توظيف التكنولوجيا في التعليم.

أعطِ شخصًا يافعًا - حتى في البلدان غير المتقدمة - جهاز حاسوب؛ وسيكون قادرًا على تشغيله، وإصلاحه، واستخدامه في التعلم، من دون الحاجة إلى مدرب أو دورات برمجة مفصلة. أكثر من ذلك، سيتمكن مع أصدقائه من اكتشاف طريقة لتطويره. متى كانت آخر مرة رأيت فيها طفلك يقرأ كتيب إرشادات؟ على الأغلب لم يحدث ذلك قط! لقد تعلم الجيل الجديد كيف يعمل الأشياء بقدرة الحدس، أو بالتجربة واختبار الخطأ. لقد ولى عصر مناهج التعليم التي تعتمد مبدأ (غسيل الدماغ)، فهل غير المعلمون أساليب تدريسهم؟ على الأغلب لم يفعلوا بعد.

◆◆◆◆

74

هل عدم المساواة خطيرٌ؟

في عام (1749م) زار جان جاك روسو (ديدرو) الذي كان سجينًا آنذاك في قلعة فينسن بباريس، كان الجو حارًّا لا يطاق، وكان ديدرو جالسًا تحت شجرة سنديان يطالع مجلة (ميركور دو فرانس)، ويفكر في سؤال طرحته أكاديمية ديجون آنذاك: (هل ساهم تطور العلوم والفنون في زيادة الفساد أم في ارتقاء القيم الأخلاقية؟). في ما بعد كتب في اعترافاته(*) أن ما حدث آنذاك كان أشبه (بانفجار أنار عقله بآلاف الأضواء). الإنسان في الأصل كائن جميل وطيب، لكن محيطه المجتمعي من أنظمة ومؤسسات قد يحوله إلى مخلوق شرير.

في عام (1753م)، أعادت الأكاديمية نفسها الكرة، واقترحت موضوعًا آخر: (خطاب حول عدم المساواة وأصلها بين بني البشر) الذي أصبح في ما بعد من مكونات الثقافة العالمية: «إن اكتشاف الحديد وزراعة القمح مسؤولان عن بلوغ

(*) الاعترافات: Confessions، كتاب سيرة ذاتية من تأليف جان جاك روسو، يتحدث فيه عن ثلاث وخمسين سنة من حياته، بدأ بتأليفه سنة (1765م)، وانتهى منه سنة (1769م)، لكن الكتاب لم ينشر حتى (1782م)؛ أي بعد أربع سنوات من وفاته. (المترجم).

الإنسان مرحلة الحضارة وعن ضياع الإنسانية، فبمجرد تمكن الإنسان من مراكمة الثروة تختفي المساواة من المجتمع البشري ويصبح العمل ضروريًّا».

في أيامنا كانت هذه الأكاديمية ستعيد صياغة الفكرة نفسها على الشكل الآتي: (هل الاقتصاد مسؤول عن عدم المساواة بين بني البشر مثلما عن فساد القيم الأخلاقية؟). للأزمنة المختلفة مصطلحاتها المختلفة. كان جوزيف ستيغليتز، الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد، أول من بين أن (1%) من كبار الأثرياء فقط يضعون يدهم على الموارد الاقتصادية لكوكبنا، وأن (49%) من الثروة الكونية تملكها الولايات المتحدة الأمريكية وحدها. فمن هم هؤلاء الأثرياء؟ حتى تغدو عضوًا في نادي النخبة يجب ألا يقل دخلك السنوي في الولايات المتحدة عن (350) ألف دولار، وعن (215) ألف دولار في بريطانيا العظمى، و (270) ألف دولار في سويسرا.

ما تأثير عدم المساواة الاقتصادية في المجتمع؟ في أوروبا، أدى الإرث الشيوعي إلى ظهور قدر أكبر من المساواة في العديد من البلدان، واليوم يعكس أيضًا هذا الإرث مؤشر جيني (على اسم الإحصائي الإيطالي كورادو جيني) الذي يقيس تشتت مستويات الدخل في مجتمع معين. أما البلدان التي حققت أكبر قدر من المساواة في توزيع الدخل فهي: الدانمارك واليابان

والسويد، وسينضم إليها قريبًا كل من: الجمهورية التشيكية وسلوفاكيا وأوكرانيا ورومانيا وسلوفينيا وهنغاريا. فهل هذا شيء جيد؟

شهدت المجتمعات البدائية - بحسب علماء الأنثروبولوجيا - في مراحل الالتقاط والصيد نوعًا حقيقيًّا من المساواة، وقد تغير كل شيء مع اكتشاف الزراعة وظهور العمل المتخصص. هل يمكن أن نقول إذًا إن عدم المساواة هي ضريبة التقدم؟ أقرّت مارغريت تاتشر في خطبتها الشهيرة أمام البرلمان البريطاني، بوجود هذا النوع من عدم المساواة في المجتمع البريطاني، لكنها أكدت في المقابل أن مستوى حياة الناس عمومًا قد تحسن، فالجميع يعانون عدم المساواة، لكنهم أصبحوا أكثر ثراء في الوقت نفسه.

يتقبل الناس ببساطة وجود الدخل المرتفع لدى بعض الأشخاص؛ على أن يساهم ذلك في الرفاه العام للمجتمع. لقد غير الآيباد والآيفون حياة ملايين الناس إلى الأفضل، فلا بأس أن يصبح ستيف جوبز من كبار الأثرياء، أما ما لا يقبله الناس فهو مراكمة الثروات الكبيرة دونما مبرر، كأن يربح تاجر ملايين الدولارات في صفقة مالية واحدة من دون أن يكون لذلك أي أثر إيجابي في حياة الناس والمجتمع.

ويكمن جوهر المشكلة في أن معظم الناجحين -غالبًا- يهملون إضفاء شرعية اجتماعية على نجاحاتهم، سواء من

خلال تقديم الابتكارات المفيدة للمجتمع أو المساهمة في العمل الخيري. يؤدي النجاح الاقتصادي بالضرورة إلى عدم المساواة، ولكن من المهم جدًّا تعزيز ثقافة (سداد الدين) للمجتمع لدى الناجحين. إن أنانية الأثرياء وغطرستهم هي التي أوجدت الكراهية تجاههم، وليس نجاحهم نفسه.

◈◈◈◈

75

هل نعمل أكثر من اللزوم؟

تعد المكسيك وتايلاند وكوريا الجنوبية أولى دول العالم من حيث عدد ساعات العمل السنوية؛ إذ يعمل الناس أكثر من (2300) ساعة بحسب إحصاءات عام (2013م)، ويقال إن العمال في كوريا الجنوبية يفضلون النوم في أماكن عملهم ليلًا لتجنب ضياع الوقت في زحام المرور الصباحي. كنت أود لو يفكر طلبتي بنفس الطريقة!

يعمل الناس في الولايات المتحدة أكثر مما قد يخطر ببال المرء: (1949) ساعة في العام. أما معظم الدول الأوروبية من السويد إلى البرتغال مرورًا بألمانيا فتتراوح ساعات العمل فيها بين (1700) إلى (1800) ساعة، وتقع فرنسا في أسفل السلم برقم لا يتجاوز (1600) ساعة، وبذلك توجد فجوة من (700) ساعة بين كوريا الجنوبية وفرنسا بمعدل (40) ساعة أسبوعيًّا، أو (17) أسبوع عمل؛ أي ما يعادل أربعة أشهر في السنة.

لم تكن الأمور على هذا النحو في الماضي، فقد مر زمن كانت فيه أوروبا والولايات المتحدة (كوريا) عصرهما. لقد قامت الثورة

الصناعية في القرن التاسع عشر - مثلما الطفرة الاقتصادية في بداية القرن العشرين - على العمل الشاق، وفي الولايات المتحدة لم يحدث تخفيض ساعات العمل في صناعات الفولاذ إلى (12) ساعة موزعة على ستة أيام في الأسبوع إلا في عام (1923م)، وكان على الرئيس هاردينغ آنذاك ممارسة أقصى نفوذ ممكن للتغلب على تردد أرباب العمل الذين كانوا خائفين من أن يؤدي ذلك إلى انهيار القدرة التنافسية للولايات المتحدة.

اليوم لا يزال هناك (17) دولة يعمل فيها الناس أكثر من (2000) ساعة سنويًّا، وتأتي في أسفل القائمة كل من البرتغال والدانمارك وفرنسا بساعات عمل أقل من (1700). بالرغم من ذلك، هل تؤدي زيادة ساعات العمل إلى مزيد من الإنتاجية؟ هذا غير صحيح عندما يتعلق الأمر بالابتكار. تعمل الولايات المتحدة أقل من كوريا الجنوبية بـ (350) ساعة سنويًّا، لكنها فازت في عام (2014م) بـ (283) من جوائز نوبل في الفيزياء، والكيمياء، وعلم الاقتصاد؛ فيما لم تفز كوريا الجنوبية بجائزة واحدة منها حتى الآن.

مع ذلك، عندما تنخفض ساعات العمل عن رقم محدد يصبح من الصعب على الدولة تمويل أنظمة الضمان الاجتماعي والصحي بشكل لائق، ويدعى ذلك نسبة العمالة. في سويسرا

تمثل العمالة الإجمالية (58%) من عدد السكان، وفي ألمانيا (51%)، أما في فرنسا فهي - لسوء الحظ - لا تتعدى الـ (43%).

عندما تتناقص نسبة العاملين في الدولة بصورة واضحة لا يعود هناك خيار للحفاظ على مستوى المعيشة المناسب سوى فرض ضرائب ثقيلة على (الأقلية السعيدة) التي تحظى بفرص العمل، وفي الواقع فإن ميزة وجود قاعدة سكانية عاملة واسعة تكمن في أن الدولة تستطيع خفض معدلات الضريبة إلى حدود معقولة وتحصيل إيرادات مالية كافية في الوقت نفسه.

هناك نتيجة غير متوقعة، مثلما في فرنسا، عندما تنخفض نسبة العمالة إلى حدودها الدنيا، وهي ارتفاع معدل الإنتاجية. بالنظر إلى الناتج المحلي الإجمالي للفرد العامل (وهو معيار بسيط لقياس الإنتاجية الوطنية)، تجاوزت فرنسا (55) دولارًا في الساعة، وهو واحد من أعلى المعدلات في العالم! لكن لسوء الحظ، من أجل إنتاجية بهذه الفاعلية يتعين على الفرنسيين العاملين دفع ضرائب باهظة؛ حتى تتمكن حكومتهم من مواصلة إنفاق (56%) من الناتج المحلي الإجمالي للأمة على الخدمات العامة وبرامج الضمان الاجتماعي.

حتى إذا كان العمل الجيد أفضل من العمل ساعات طويلة، لا يمكن للبلد تجنب ضرورة المحافظة على حد أدنى من

ساعات العمل، وهذا هو السبيل الوحيد لضمان قدرة السكان على احترام الهيكل الاجتماعي الذي يطمحون إليه والاستفادة من مزاياه (الصحة، والتعليم، ونظام رواتب التقاعد). بالتالي، فإن عدد ساعات العمل والقاعدة العريضة من السكان العاملين عاملان بالغا الأهمية للحفاظ على مستوى معيشي لائق للأمة، حتى لو كانت التركيبة الديمغرافية تعني زيادة عدد الأشخاص المُعالين، فلا ينبغي أن يصبح العاملون أقلية.

◈◈◈◈

76

هل سيغدو الماء في المستقبل (ذهبًا أزرقَ)؟

نادرة هي المصادر الطبيعية الوفيرة كالماء؛ ومع ذلك فليس هناك مصدر يشبه الماء من حيث توزعه غير المنتظم وأهميته الكبيرة، وفي عدم إيفائه حقه من التقدير. ومن المرجح أن يكون الماء محور الصراع الاقتصادي والبيئي العالمي في القرن الواحد والعشرين. تغطي مياه المحيطات المالحة (1351 مليار كم^3) الجزء الأعظم من الكوكب. أما الماء العذب فيتركز (69%) منه في الأنهار والجبال الجليدية في مناطق القطبين، في حين لا تتعدى نسبة الماء العذب المتاح للزراعة والاستخدام البشري (2.5%) من المخزون العالمي (35 مليون كم^3).

لا يزال الحصول على المياه العذبة نوعًا من الامتياز، إذ تضم عشر دول فقط (60%) من موارد المياه العذبة في العالم؛ ومنها: البرازيل، وروسيا، والولايات المتحدة، والصين، وكندا. ومن ناحية نصيب الفرد من الماء العذب فتقع سويسرا على رأس القائمة؛ بسبب كثرة البحيرات والأنهار الجليدية في أراضيها. أما بالنسبة إلى (13%) من سكان العالم الذين يعيشون تحت مستوى الفقر، فيعد الحصول على مياه الشرب، إلى جانب

المواد الغذائية والتدفئة، الهم الرئيس اليومي لمعظمهم. ومثلما ذكرنا سابقًا، تشكل النوعية غير الجيدة للمياه مصدر (90%) من الأمراض في البلدان الفقيرة.

ومع ذلك، فإن استهلاك المياه آخذ في الازدياد. كان الاستهلاك العالمي عام (1940م) نحو (1000) كم^3 سنويًّا؛ أما في الوقت الحاضر فيتجاوز الـ (4200) كم^3، ويُتوقع أن يصل إلى (5000) كم^3 بحلول عام (2025م). تستهلك الزراعة (70%) من مجموع الاستخدام العالمي للماء، والصناعة (22%)، أما الاستهلاك المنزلي فلا يتعدى نسبة (8%).

يتفاوت استهلاك المياه العذبة باختلاف مستوى الدخل؛ في شرق آسيا لا تزال نسبة المياه المستخدمة في الزراعة (80%) مقابل (22%) في أوروبا الغربية، ويؤثر اختلاف عادات الطعام في هذه الأرقام بشكل ملحوظ. بحلول عام (2030م) سيزداد استهلاك لحوم الأبقار بنسبة (80%)، بحسب إحصاءات البنك الدولي، مع العلم أن إنتاج كيلوجرام واحد من اللحم البقري يحتاج إلى (15) ألف لتر من الماء.

لقد أصبح توفير مصادر الماء العذب ذي النوعية الجيدة أولوية عالمية، وهناك مشروعات مستقبلية لقطر جبال الجليد من القطبين إلى دول الخليج العربي بهدف إذابتها والحصول على الماء الصالح للشرب.

ويبدو أن تقنيات تحلية المياه حل أكثر واقعية. اليوم، هناك أكثر من (17) ألف مصنع تحلية تنتج تقريبًا (80) مليون متر مكعب من المياه يوميًّا، أي أكبر بعشرة أضعاف مما كان عليه الإنتاج في عام (1980م)، وقد شرعت شركات مثل نستله، ونيليفر، وتاتا في الهند، في إنتاج أجهزة منزلية رخيصة لتنقية المياه، لاستخدام الأسر في البلدان النامية.

تتيح تربية الأحياء المائية تلبية جزء مهم من احتياجات الإنسان من البروتين. في الوقت الحالي يعاني (88%) من المخزون السمكي في أوروبا الإفراط في الصيد، وفي نوفا سكوتيا، يستخدم الصيادون أربعة أضعاف الوقود للحصول على طن واحد من الأسماك، مقارنة بالوضع قبل خمسين عامًا، أي (30) لتر وقود لكل طن من السمك. ويتعين على زملائهم الأوروبيين أن يبحروا مسافات أطول؛ مما يرفع استهلاك الوقود إلى (100) لتر للطن الواحد، ولذلك، أصبح التحول من الصيد البحري إلى الاستزراع السمكي ضرورة ملحة على المستوى العالمي. لحسن الحظ، تحقق تقدم ملموس في هذا المجال؛ فمنذ عام (2013م) تجاوز حجم الإنتاج في المزارع السمكية ما يجري اصطياده من المحيطات المفتوحة.

مع ذلك، يجب التركيز على تغيير سلوكنا ومفاهيمنا بشكل رئيس، وعلينا تغيير نظرتنا إلى الماء من مصدر متاح

ووفير، إلى ثروة ثمينة ونادرة ينبغي المحافظة عليها وترشيد استهلاكها. وبالتالي علينا تغيير مواقفنا وتشريعاتنا. على سبيل المثال، كان الماء العذب في إيرلندا حتى وقت قريب متاحًا للجميع مجانًا، ونتيجة لذلك وصل استهلاك الفرد إلى (380) لترًا في اليوم، وهو مايعادل (2-3) أضعاف الاستهلاك في باقي دول أوروبا. وقد تسبب إهمال صيانة أنابيب نقل المياه في إيرلندا في زيادة الهدر نتيجة الأعطال والتسربات في (41%) منها.

إن الماء ذهبنا الأزرق بالفعل، ويجب التعامل معه على هذا الأساس، وربما سيتعين علينا في أحد الأيام التوقف عن ري نباتاتنا بالمياه الصالحة للشرب.

◆◆◆◆

77

هل يتعين علينا أكل كلبنا؟

عنوان هذا الفصل مأخوذ عن كتاب ألفه روبرت وبريندا فال من جامعة ويلينغتون في نيوزيلاندا، (يا لها من طريقة عظيمة في تسويق كتابي!)، وهو عمل فريد من ناحيتي الأسلوب، والمحتوى. بحسب الكتاب يتمتع أصدقاؤنا من ذوي القوائم الأربع ببصمة بيئية(*) لا يستهان بها. باختصار، يمكن حسبانهم بشكل أو بآخر من الملوِّثين غير المرئيين لكوكبنا، وتأثيرهم أكبر مما يمكن للمرء توقعه.

ستبدو الأرقام صادمة إلى حد ما، فالكلب متوسط الحجم يستهلك (164) كغم من اللحم و(95) كغم من الحبوب سنويًّا، وحيث إن إنتاج كيلوجرام واحد من الدجاج يتطلب (43.3) م^2 من الأرض، وكيلوجرام الحبوب (13.4) م^2، فإن حجم البصمة البيئية لأصدقائنا من ذوي القوائم الأربع يصل إلى (0.84) هكتارًا في السنة، وإذا كان كلبك من النوع الضخم (مثل الراعي الألماني) فسيرتفع هذا الرقم إلى (1.1) هكتارًا.

(*) البصمة البيئية (Ecological Footprint): مساحة الأرض اللازمة لتزويد السكان بالمواد والموارد اللازمة لحياتهم، يضاف إليها المساحة التي يتطلبها امتصاص نفاياتهم، وتقاس بالهكتار. (المترجم).

ويصبح الأمر أكثر إثارة للاهتمام عندما يقارن مؤلف الكتاب هذه النتائج مع التأثير البيئي لسيارة تويوتا لاندكروزر سعة (4.6) لتر التي تقطع سنويًّا (10) آلاف كيلومتر. فهذه السيارة – التي تثير عادة قلق مناصري البيئة – تستهلك طاقة قدرها (55.1) جيجا جول في العام، ويشمل هذا الوقود والطاقة اللازمة لتكريره، ويعادل ذلك بمقياس البصمة البيئية (0.41) هكتارًا، وهو يساوي تقريبًا نصف ما يستهلكه الكلب متوسط الحجم، أو ثلث استهلاك الكلب الضخم. وبناء على ذلك فإن الشخص الذي يستقل القطار بصحبة كلبه يتسبب في تلوث يفوق ما يتسبب به آخر يذهب إلى عمله يوميًّا بسيارة دفع رباعي كبيرة. أظن أنه لم يفكر أحد من قبل بهذه الطريقة، وقد تحققت من صحة هذه الأرقام مجلة نيوسيانتيست New Sientist.

وإذا كنت من محبي القطط لا الكلاب، فلا تتحمس بسرعة. في بريطانيا العظمى هناك (7.7) مليون قط تقتل ما متوسطه (188) مليون حيوان بري كل عام، أو ما يعادل (25) فريسة لكل قط. أما في الولايات المتحدة فهناك (76) مليون قط؛ وبالتالي من السهل تصور حجم المجزرة. من الذي يتخيل أن كرة الفراء الناعمة التي تستقر في حضنه مصدرة خرخرة ناعمة؛ تنقلب إلى سفاح بمجرد خروجها من المنزل؟

هذا مثال رئيس على قانون العواقب غير المقصودة، وهو قانون يمكن تطبيقه على الكلاب والقطط مثلما على البيئة

والاقتصاد. في هذه الأيام تترابط الأنظمة في ما بينها، مما يجعل - عمليًّا - التحكم بجميع نتائج سلسلة الأحداث مستحيلًا.

أسست متاجر (بودي شوب) سمعتها الطيبة من خلال تركيزها على احترام منتجاتها للبيئة وبأنها لا تجرب على الحيوانات. لسوء الحظ، تبين لاحقًا أن الموردين أو الموردين الثانويين لم يلتزموا بهذه المعايير بشكل كامل، وكان ذلك بمثابة صفعة لصورة الشركة، وموظفيها، وكذلك - بالطبع - لعملائها! يذكرنا هذا بتعقيد بيئتنا الاقتصادية، فاليوم لا يمكن لأحد أن يتنبأ بجميع نتائج سياساتنا البيئية والغذائية أو المالية - سواء كانت متوقعة أم لا -. الفضيلة والعصمة ليستا موجودتين فعليًّا في الحياة الواقعية، إلا في الدين ربما، ويمكن لبعض التواضع أن يكون ممارسة يومية جيدة. سأتوقف الآن عن الكتابة؛ فكلبتي شمروخ ترمقني بنظرات قلقة، وأريد طمأنتها قليلًا بأنني لن ألتهمها هذا المساء.

◈◈◈◈